

معضلة كتاب التاريخ في مدارسنا

الشيخ جعفر امهاجر

(1)

المتفق عليه إجمالاً أن المنهج التربوي المطبق في مدارسنا هو منهج قد عفا عليه الزمن، وأنه بحاجة إلى إعادة نظر وتجديد. وهناك الآن اهتمام خاص تتولاه لجنة من أهل الاختصاص، مركّز على كتاب التاريخ المدرسي، يعمب على وضع كتاب. يكون المعتمد في كافة المدارس من رسمية وخاصة، وذلك تنفيذاً لأحد بنود الطائف الشهير.

ومن الغني عن البيان، أن وثيقة الطائف، حين أولت مادة التاريخ هذه العناية الخاصة من بين الموارد الأخرى، فمعنى ذلك أن هذا (التاريخ) مسؤول بدرجة ما عن اندلاع الحرب الأهلية. التي انعقد مؤتمر الطائف ليعالج ملا يمكن علاجه من أسبابها وآثارها.

قد لا يأتي الكتاب العتيد بمستوى الآمال المعلقة عليه. بل إننا نرجح لأسباب لا فائدة من ذكرها، أن لن يختلف كثيراً عن عشرات الكتب التي تداولتها أيدي طلابنا خلال نصف القرن الفائت، كي لا نقول خلال القرنين الفائتين. ليشمل الكلام الفترة التي نشطت فيها مدارس الإرساليات الأجنبية. ومعلوم أن هذه الإرساليات قد حملت مشروعاً ثقافياً - سياسياً كان من أبرز أدواته (التاريخ) الذي لفتته أجيالاً من الطلاب، يناسب مزاجها ومراميتها. وبذلك أسست لأمر، من نتائجه مسلسل الفتن الطائفية، الآخذ بعضها بطرف بعض منذ قرن ونصف القرن. أي منذ أم الفتن وطليعتها فتنة 1840م.

(2)

من ترديد ما هو معلوم، أن كتاب التاريخ المدرسي عندنا، هو حكاية لتاريخ مجتزأ وانتقائي. اقتصر على تاريخ جزء من أرضه. وعلى تاريخ فريق من شعبه، تاركاً الباقي وهو الأكبر رقعة والأكثر عدداً، خارج اهتمامه.

لم يكن ذلك الاجتزاء مما يكن كتماناً أو مما يمكن تسويفه دون فذلكة وعلى هذا فقيل نحن مضطرون اضطراراً لتجاهل قسم كبير من تاريخ الوطن لأنه تاريخ سيئ. فيه حروب وفتن ونزاعات من مختلف الأشكال جرت غالباً تحت عناوين طائفية لا شك أن استحضرها وتجديد ذكرها سيكون أداة تحريض وتعبئة للنفوس. إنه تاريخ مجتزأ هو خير ألف تاريخ مرة من تاريخ يزرع الفتن.

(3)

أعتقد أن كل ما قدمنا به حتى الآن يحدد السؤال. ومعلوم ان تحديد السؤال هو نصف الطريق إلى الجواب الصحيح.

وعليه نسأل:

هل نحن حقاً محاصرون بين خيارين لا ثالث لهما. فإما تاريخ مجتزأ. يعني بالضرورة مزيف؟

وإما تاريخ شرير، تحريضي؟

ولنلاحظ هنا أن السؤال لا يناقش صحة المبدأ القائل بضرورة أن يكون التاريخ مادة إيجابية في آثاره الموضوعية كما في الأهداف المتوخاة منه.

ولنلاحظ ثانياً، أننا لسنا الوطن الوحيد الذي مر بمثل التجارب المرة التي مر بها شعبنا في الماضي البعيد والقريب. تجارب فيها احتراب أهل الوطن. ومع ذلك فإننا لم نجد أحداً يشطب قسماً من تاريخه، بمثل الحجة التي توّسل بها كتّاب تاريخنا. فأنت - مثلاً - لن تجد كتاباً في تاريخ الولايات المتحدة يتجاهل الحرب الأهلية الأمريكية الشهيرة. أو آخر يتجاهل الحرب الأهلية المسماة حرب الوردتين في بريطانيا. أو مذابح الهوجينوت في فرنسا.. إلخ إلخ.

إن توظيف التاريخ توظيفاً إيجابياً يحتاج إلى شرطين:

الشرط الأول: البراءة يعني أن يكون كتاب التاريخ سليم الطوية حسن المقاصد بريئاً من الأغراض الضيقة. ومما لا شك فيه أن الذين كتبوا تاريخنا تلك الكتابة المجترأة كانوا قادرين على أن يوجهوا كتابتهم وجهة العبرة للأجيال. بحيث تتحول ألم الأجداد وربما آثامهم إلى رداً يمنع أبناءهم من أن يقفوا في مثل الأخطاء التي وقفوا فيها فلم يجنوا غير الدماء والدموع والآلام. التاريخ مستمر بنفسه سواء كتمناه أم أعلنناه. وخير ألف مرة أن نقدمه بصورة صحيحة وكما حدث مع العناية بتبيان ما فيه من دروس وعبر.

الشرط الثاني: صحة المنهج والحقيقة أن تاريخنا الرسمي يقدم لنا دليلاً ساطعاً على ضرورة المنهج السليم. والحقيقة أيضاً أن الحجة التي استخدمها مؤرخونا الانتقائيون إياهم هي حجة ترد عليهم لتدين المنهج القاصر الذي استخدموه. ذلك أنهم حاصروا أنفسهم في التاريخ السياسي وهو بالفعل تاريخ شرير.

إن تاريخ رجال الإقطاع وأمراءه وحروبهم الآثمة. التي كان وقودها الناس المساكين العاجزين متجاهلون كل التجاهل تاريخ الناس يعني مثلاً الحركة السكانية الحالة الاقتصادية الإنتاج، حركة الأفكار.. إلخ

وهي هي التاريخ. أي ما نسميه التاريخ الحضاري. ولو أنهم عملوا على أساس هذا المنهج لخرجوا بتاريخ إنسانياً ينجلون به ولا ينجشون خطره. ونقول بالمناسبة إن في تاريخنا الحضاري ما نفتخر به حقاً، وأسطق دليل على ذلك جبل عامل ودوره الفكري العالمي وطرابلس وإنجازاتها الرائعة على أكثر من صعيد والحركة الفكرية في مدن الساحل: صور، بيروت وغيرها. وهي حرية باهتمام أكثر من غيرها.

خلاصة القول:

إننا نرحب بمحاولة وضع كتاب موحد لتدريس مادة التاريخ في مدارسنا، ولكننا لا نرى أي دليل حتى الآن على أن الكتاب العتيد سيتخلص من المشكلات المزمّنة للكتب التاريخية الرسمية ومع ذلك فإننا سنتقبل المحاولة شرط أن تحرّك حالة حوار حول الموضوع يشارك به أهل الاختصاص ابتغاء الوصول في النهاية إلى ما هو أكمل موضوعياً وصحيحاً منهجياً وأخلاقياً بالدرجة الأولى.